كفاح المعلم الإلزامي

في محاربة الجهـــل والأمية

بقلم الأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش بوزارة المعارف

يقول العارفون : إن وسائل الحرب نوعان : ظاهرة وخفية . فالظاهرة هي العدّة ، والعديد ، والعتاد . والخفية هي العقيدة الوطنية ، والروح المعنوية ، وروح المقاومة . ولن تظفر أمة بالنصر في الحرب إلا إذا ظاهرتها هذه العوامل مجتمعة .

وأنت أيها المعلم الالزامي محارب مجاهد : تحارب الجهل ، وتجاهد في محو الأمية . فإن أسعدك الحظ وجمعت بين العوامل الظاهرة وهي عدّة المناهج ، وعتاد الإعداد ، وعديد المواطنة ، وبين العوامل الخفية وهي روح الإيحاء والاستهواء ، وروح القـدوة الحسنة ، وروح الرغبـة الصادقة كنت منتصراً في حربك ظافراً في جهادك . وإن فقدت بعضاً منها أو كلها كان مدى فشلك بمقدار فقدك .

وإن أنبل ما تطلبه الوزارة والأمة من المعلم المقتدر أن ينجح في تربية النشء تربية وطنية تامة ، وأن يفوز في تنشئتهم على الدين القويم والخلق العظيم .

وهذا واجبكم أيها المعلمون الإلزاميون إزاء تلاميـذكم الذين هم أبناء وطننا العزيز ، وهم الجيل الذي يمثل السواد الأعظم من الأمة .

ولمـا كانت مرحلة التعليم الالزامي مرحلة مستقلة قائمـة بذاتها : لهـا بدايتها ، ولها غايتها ، وجب أن تعتبر وحدة كاملة لهـا غرض واحد ، وأسلوب خاص ، ومنهج ذاتي يصبغ شخصيتها ، ويؤلف طابعها . وأسمى ما توصل إليه هذه المرحلة أن ينمو حب الدين والوطن والبيئة جميعاً في النفوس نمواً مطرداً يملك على التلميذ حسه ، وإدراكه ، ونزوعه ، وشعوره ، وآلامه وآماله ، وتفكيره وأعماله . فتحيا فيه العواطف القوية المنظمة التي تدفعه دائماً إلى مسالك الخير ، وتحركه الى ينابيع الفضل .

وليس المنهج الالزامي وحده — مهما يبلغ من القوة والحق — بقادر على تحقيق هذا الغرض ، انما تحقيقه منوط بالعوامل الظاهرة والخفيـة جميعاً ، وبالأداة المنفذة ، وما الأداة الا المعلم نفسه : ففي مكنته أن يجعل دروسه روضة فيحاء ، وأن يبعث فيها فيض

الحياة . كما أنه قد يحيلها مقابر مقفرة ، و يقتل فيها حيويتها وروحها و يجعلها ذابلة ، شاحبة الوجه ، ممقعة اللون ، ليس فيها سوى عثير الاصطلاحات وتراب المقررات ، فتراءى للتلميذ كأنها " زرق العيون عليها أوجه سود " ذلك أن المادة الواحدة قد يتناولها معلم ماهر فينسق فيها و ينوع ، و يبسط فيها و يقبض حتى يلبسها ثو با من الجمال والبهجة ، وقد يتناولها مدرس آخر فينقلها فاترة ، جامدة خالية من الحس والحركة . إلا حس الكراهية ، وحركة العداء .

ولئن كان للتعليم الابتدائى منهج يغاير هذا المنهج فذلك لأن مرحلته ليست نهائية فى ذاتها . بل هى موصلة الى التعليم الثانوى ، فالتعليم الجامعى . وكل محاولة لربط المنهجين (الابتدائى والالزامى) ستظل دائما فاشلة ، لأنها خاطئة ، وخاطئة لأنها فاشلة ، وواهية لكونها صناعية ، وصناعية لأنها لا تتفق مع طبيعة العقول والبيئات والنفوس ، وتكلف الالزاميين شططا ، بأخذهم الى ميادين ليس فيها ما يفيدهم فى ختام مرحلتهم .

وأنت أيها المعلم الالزامى يجب أن يستريح ضميرك حين تؤلف بين عناصر منهج الالزامى ، وتجعل من أحجاره المتفرقة قصرا مشيدا متماسكا ، ومن مواده المختلفة غذاء شهيا لذيذا ، بحسن طريقتك ، وجودة عرضك ، ولباقة قولك ، وحضور بديهتك .

قل لى بربك : ما ذا يستفيده الطفل من درس القط : من أن له ذيلا ، وعينين ، وأرجلا . وأنه يشبه الكلب والأرنب ، والفأر والثعلب . فى حين أنه يراه صباح مساء ، بل و يطعمه ويسقيه صباح مساء . إنه لا يمكن أن يجنى من هذا سوى إضاعة وقته الثمين فيما ليس بثمين .

لكنك لو تعرضت لهذا الدرس ذاته بشىء من التصوير البلاغى والخلق ، والخيالى ، ووضعت هذه المعانى وما يتصل بها فى قالب أنشودة طريفة ، يقرؤها الطفل فيطرب ، و ينشدها فيعجب ، و يطالعها فيترنم : لكان هذا العرض أعود عليه فى تربية ذوقه واحساسه وتكوين عقله وأدبه .

هذا مثال أذكره لك لتخلص نفسك من نير الألفاظ المقررة فى المنهج الالزامى ، وتخرج الى فضاء الحياة النفسية اللا نهائية فتتلمس الوسائل التى تراها جديرة بالعناية ، وتأخذ بالأسباب التى تجعلها موصلة الى أحسن غاية .

وثق بأن المفتشين سيحكمون لك أو عليك بمقدار ما تتركه من أثر فى تربية تلاميذك ، لا بمقدار ما تتركه من ألفاظ ، وجمل ، واصطلاحات ، عالقة بذواكرهم وحوافظهم .

ومن المسلم به أن المنهج ليس دو كل شيء — كما قدمنا — فلا بد أن تكمله بتعويد تلاميذك العادات الصحية التي تصون جسومهم وتحفظ عليهم نضرة حياتهم ، و بأخذهم بجميل الأخلاق حتى يشبوا محبين لبلادهم و بيئاتهم ، ووطنهم ، وملتهم حبا قويا سليما فيه الخير لهم ولسائر الناس .

يقول الغافلون : ان بلادنا بلاد الجوع والضنك ، بلاد الشقاوة والعرى ، بلاد الضيق والعسر . وهذا قول يراد به أن تستشعر البلاد بالمذلة والبؤس ، وأن تنكمش شخصيتها ، وتهن من الخوف قوتها ، وتضعف عقيدتها . إن بلادنا طيبة ، يخرج نباتها بإذن ربها حلالا طيبا ، وثمرا شهيا : منحها الله تبرا فى تربتها ، وخصبا فى أرضها ، وسعة فى رزقها ؛ مما يجعل لأهلها رحبا فى العيش ، وراحة فى الحياة . فلا ضيق إلا فى العقول ، ولا فقر إلا فى الأخلاق . ولا خلاص من هذا البلاء إلا بتعليم الشعب المصرى تعليما يغرس فى نفوس أفراده حب البلاد ، واحترام الحقوق والواجبات ، و يزيد نشاطهم فى نواحى البيئات الصناعية ، والزراعية ، والتجارية ؛ لتكون ثروة الوطن فى نماء مستمر ، و بأيدى أبنائه العاملين .

وان أول ركن تقوم عليه هذه النهضة هو التعليم الالزامى .

فهل تعلم أيها المدرس إلى أى حدّ أنت مسئول ؟ وإلى أية غاية شريفة يجب أن تتجه ؟ إنك لتضع لبنة فى بناء مصر الشامخ إن عوّدت تلاميذك بر الوالدين ، وحسن السمع والطاعة ، وآداب الاستئذان والزيارة ، وآداب الحديث ، والسير فى الطرقات ، وعادات النظام والنظافة ، والقيام بالعبادات والفرائض بطرق عملية مؤثرة ، ويجب أن تنمى فى نفوسهم العواطف النبيلة ، على التدريج وقليلا قليلا ؛ لتخرج وطنيين عاملين يحبون الله ، و يحبون وطنهم ويتشاركون مع إخوانهم تشاركا فعليا له أثره فى جلب المنافع ، ودرء المضار ، والتعاون على سائر المقاصد الخيرية .

وحب الوطن هو الهدف الأسمى الذى نرمى إليه من تربية هذه الناشئة فهو الخير ، و به الحياة ، ولاحياة الابه .

والمدرسة الإلزامية وليدة ناشئة حديثة عهد بالوجود. فليست لها صبغة تقليدية تتمشى مع العرف ، وتكوّن شخصيتها ، وتجعل لها فى نفوس الناس منزلة ومكانة ، وهذا شأن كل بدعة جديدة حسنة كانت أو سيئة : تكون خالية مما ألفه الشعب وحرص عليه كل الحرص .

وما العرف إلا مجموعة من العادات والتقاليد والأخلاق والمعتقدات ، والأحكام والاصطلاحات التي تتفق عليها الأمة ، وتتواضع عليها تواضعا يثبت دعائمها ، ويوطد أركانها ، ويرفع قواعدها ويجعلها في مقام القوانين السماوية والوضعية فيخضع لها الشعب كل الخضوع ، ويتلقاها بلا مكابرة ولا منازعة ، وينفذها بتمامها ، ويظر إليها نظرة إكبار وإجلال ، وليس شيء أحب إليه مما وافقها ، وجرى مجراها .

فهل في استطاعتك أيها المعلم الالزامي — وأنت ممن يدينون بالعرف — أن تجعل مدرستك متمشية معه ومع التقاليد التي يحبها الناس ؟ أظن من الممكن أن تدخل في مدرستك الإلزامية بعض العناصر التقليدية المألوفة في المدارس الأولية : تكليف التلاميذ إقامة الشعائر الدينية ، وحفظ القرآن الكريم حفظا متقنا ، مع تجويد آياته الشريفة ، والمثابرة على كل ذلك ، كما أنه من الممكن أن تستخرج من كتاب الله بعض أحكام الدين وتلقيها عليهم وعلى آبائهم بطريقة تلهمهم العقيدة والايمان .

أما إن تجردت المدرسة الإلزامية من التقاليد القديمة فانهم يفرون منها ، لخلوها مما يوافق مشربهم ، وإنهم مع عرفهم ، فينفرون ويقولون : (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ . فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) ما

محمد أبو بكر ابراهيم

للمتنبي في التحذير

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم